**الحجاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه**

**(مقاربة في أصول التفكير النحوي )**

|  |  |
| --- | --- |
| **أ.م.د. رجاء عجيل الحسناوي**  **جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم**  **الإنسانية** |  |

**المقدمة:**

تنضوي تحت أسس البحث العلمي حقيقة مفادها, أنّ العلوم تقوم على البراهين ولا علم إلّا بالبرهان, ولا برهان إلّا بمقدمات ومبادئ ضرورية. ويمكن الكشف عن ذلك بوضوح في معالجة سيبويه بناء فكره النحوي في كتابه بوسائل وآليات عملت على توليد المعرفة وإنتاجها بإقامة الدليل بطريقة منهجيّة سليمة يمكن أن نصفها في مرحلتها تلك بالتشيديّة؛ إذ يسلك بها سيبويه مسلكا يقرر فيه أنها أصل من الأصول التي يستند إليها التفكير النحوي في الكتاب. ونوّه بعض المحدثين إلى الخصيصة الحجاجيّة للكتاب بـ(( **أن سيبويه فى كتابه كان يحتج للأساليب العربية، وأوجه الخلاف والمشابهة بينهما، وطرائق إعرابها، ومقتضيات هذه الطرائق، وتلك الأوجه من المعنى والاستعمال. وقد قال سيبويه فى معرض التدليل على أن العرب يستخفون فيحذفون النون و التنوين، ولا يتغير من المعنى شى ء وبعد أن أورد طرفا من الأمثلة يستشهد بها على ذلك، قال: «وستراه مفصَّلا أيضا مفردا في بابه مع غير هذا من الحجج». فدل لفظه هذا أنه كان يقصد إلى الاحتجاج قصدا، و هو بعمله هذا قد فتح باب الاحتجاج لمن جاء بعده من النحاة و القراء**))([[1]](#endnote-1)).

إنّ رصدنا بنية نصوص الكتاب جعلتنا نستوحي صوراً خاصة منه لتقديم أنماط مختلفة من المعلومات عبر تحديد العلاقات الاستدلالية([[2]](#endnote-2)) بين التراكيب؛ وتتخذ تلك الصور، أو ما يمكن أن نسـمّيه بـ( آليّة الاستدلال ) نسقاً منطقيّاً تداوليّاً يُبنى بها الخطاب الطبيعي من حيث إنّ الاستدلال (( **إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب, أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمثابة الحجج, وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تُستنتج منها** ))([[3]](#endnote-3)).

وفي هذا الإطار وجدنا أنّ سيبويه وظّف لفظة المنزلة لتتحمل جملة من المعاني تحت مفهوم جامع سعيا منه إلى تحصيل الاستدلال, وهو مفهوم يشترك فيه علم أصول الفقه, وعلم الكلام والنحو, والبلاغة بوصفه مفهوماً تفسيرياً([[4]](#endnote-4)), من حيث إنّ هذه العلوم متفاعلة فيما بينها مما يشي بالقول إنّ نصوص سيبويه جاءت محققة لأغراضها، ومؤثرة في خالفيها( متعلمين وناقدين ) فالاشتغال بمثل هذه الآليات جعل نصوصه منظمة ومعلّلة؛ لأنّها مبنية بناءً استدلالياً معتمداً الضوابط العقلية, وأحياناً النقلية لإقامة الحجة بهدف الإقناع ([[5]](#endnote-5)) .

إنّ نزوع سيبويه إلى تلك المركزية في كتابه, إنّما هو إحداث لتغييرات في الأفكار أو توجيهها على نحو صحيح. ويستنبط من ذلك أنّ الوصول إلى إثبات صدق قضية أو تفنيدها في برهنة جدلية هو ما ينماز به الاستدلال الحجاجي, بحيث تفضي المقدمة إلى النتائج وتخدم النتائج المقدمة. وهذه الطريقة التي اتبعها سيبويه تنمّ عن أنْ يكون الإقناع هدفاً وسيلته(المنزلة). وأنّ امتلاك الإقناع لحدّ (( **هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلّي عن فعله واعتقاده**))([[6]](#endnote-6))، يُعمّق وصف المنزلة أنّها فعل متعدد الصور يسعى لإحداث تأثير أو تغيير إمّا بفعل أو ترك، ويوجب أن يمتلك المقنع كفاءة تواصلية ( وإقناعيّة )، وتتميّز هذه الكفاءة بمهارات هي:

1. **مهارة التحليل والابتكار.**
2. **مهارة العرض المنظم للأفكار.**
3. **مهارة فهم دوافع تساؤلات المتلقي واعتراضاته.**

إنّ الإيماء إلى هذه المهارات ليس من باب التصنيف, بقدر ما هي إطار لم يفت سيبويه اتخاذه هيكلاً يبني عليه حججه على وفق مرجعيّة ثقافيّة سائدة، ومشتركة بينه وبين متلقيه بعيداً عن المغالطات الوصفية.

إنّنا ههنا لا نرتجل القول بنجاح سيبويه في الإقناع المرتدّ إلى الاستدلال, بقدر ما تكفّلت به رؤيته في تحديد ذلك الإقناع المرتكز على وسيلة تصريفية لغايته وهي( **المنزلة** )([[7]](#endnote-7))؛ ويُفهم من ذلك أنّه اعتمد أسساً لبيانها يراها المتمعّن في:

1. **النصوص ذاتها**: بما لها من عمق وبما تشتمل على مكوّنات لا يمكن أنْ تفهم من دون التعريف بها وتعيينها ، ووصفها ببيان العلاقات الممكنة فيها.
2. **المعرفة النظرية**: التي تعود إلى التصوّرات التي يمتلكها سيبويه عن الوقائع الخاصة بالدلالة وسبل إنتاجها والمواد الحاملة لها, فقراءته التحليلية إنّما جاءت معُزَّزة بالمعرفة الإنسانية من أجل وصف المعنى.
3. **ثقافة المتلقي وقدرته على استحضار مرجعيات النصوص,** سواء أكانت ثقافيّة أم اجتماعيّة أم تاريخيّة أم نفسيّة، وقدرته على الربط بين ما هو معطى بصورة مباشرة وبين معارفه الموسوعية والأشياء القادرة على استحضار أمور لا تتجلّى مباشرة في ظاهر النصوص, بل تسلك مسلك الظل يدركها المتلقي إدراكه لمن هي ظلّ له, فها هو يصبّ معطيات أسسه الإقناعية في تصميم نصّه في باب "حتّى" إذ يقول:(( **فحتّى ههنا بمنزلة إذا، وإنّما هي ههنا كحرف من حروف الابتداء... ويدلّك على "حتى" أنّها حرف من حروف الابتداء أنّك تقول: " حتى انّه ليفعل ذاك", كما تقول: "فإذا انّه يفعل ذاك "... ومثل ذلك:" مرض حتى يمرُّ به الطائر فيرحمه"**))([[8]](#endnote-8)). فقد أسفر النص السيبويهيّ عن استيعاب وإدراك لغويين لما وُظِّفت له( المنزلة )؛ وعكست ثنائية اللغة والكلام, فقد حدّد القيمة اللغوية لـ" حتى " بتعيين سماتها التمييزية بأنّها للابتداء منطلقاً من هذا المنظور الوصفي إلى مرتكزات خارجية يحدّدها النظام العرفي والتداولي للغة في المواقف الواقعية في إفادة معنى المبالغة, فهو يتلقى الرحمة مما يمرّ به من طائر, واستناداً إلى مبدأ ثنائية اللغة والكلام نرى أنّ لمنهجية ( المنزلة) آلية حجاجية تبنّاها سيبويه في تناول الأفكار اللغوية في صياغة تداولية للإقناع اتّخذت بعدين:

**- الأول: بعدٌ يعكسه المبنى.**

- **والآخر: بعدٌ حواريّ( بآليتيه التشخيص والمقام)**؛ إذا ما أُخذ بالحسبان أنّ الحوار تفاعل الذوات مع محيطها الخطابي فهو خاصيّة تداوليّة للخطابات الحجاجيّة. ويبدو أنّ الجامع بين البعدين هو تشبيه قول بقول آخر بينهما وجه شبه ليُبيّن أحدهما الآخر, ويصّوره في برهانية تترك أثرها في المتلقي بتغيير المنظور الأول, واستحداث منظور جديد؛ إلّا أنّ المشابهة في المنزلة ههنا تعلو قيمتها على مفهومها المستهلك بين أشياء ما كان لها أنْ تكون مترابطة أبداً, ومن ثَمّ عُدّت عاملاً أساسياً في عملية الإبداع السيبويهيّ بما أفضى عليها لتكون حجاجاً موازناً, إمّا عن طريق طرح معادلة صورية خالصة, وإمّا عن طريق الانطلاق من التجربة بهدف إفهام الفكرة سعياً لأنْ تكون الفكرة مقبولة بنقلها من مجال إلى مجال مغاير.

فالمنزلة جمعت بين التأثير النظري, والتأثير السلوكي العملي، وهي رؤية جديدة بالفعل فكان الاستدلال الحجاجيّ بها انجازاً لعملين: عمل التصريح بالحجة من جهة, وعمل الاستنتاج من جهة أخرى انطلاقاً من محاولة إثبات وجود شيء مُعيّن عبر النموذج الثنائي المتقابل( بمنزلة- ليس بمنزلة). ذلك أنّ معنى الإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له وكذا حال النفي إذ يقتضي منفياً ومنفياً عنه, ومن ثمّة يكون هناك إثبات عدم وجود ذلك الشيء المنفي, ففي كلتا الحالتين يقع الإثبات, وهو ما دعاه إلى أنْ يظلّ مخلصاً لطريقته الخاصة في البحث عن إجابات لا تلبث أنْ تثمر هي الأخرى تساؤلات جديدة بطرق منهجيّة ما أكسب بحثه اللغوي توجّهات فكريّة واعية؛ تحاول قراءتنا للمنزلة أنْ تكشف عن العقل الكامن وراء النظام.

يظهر أنّ سيبويه قد أقام المنزلة في ظل أنْ تكون في صلب الجهاز التواصلي لإدراك الكلام وإقامة الحجج, وهو ما سيتم الكشف عنه في قابل البحث.

# المبحث الأول

# الأساس الأصولي( المعرفي ) في استعمال المنزلة

ونعني به البعد الذي يبحث في اللوازم الذهنية العامة التي تتطلبها عملية إنتاج الكلام (( **فمن دون تلك العمليات العقلية تفقد المكوّنات اللغوية قدرتها الأدائية في الاستعمال**))([[9]](#endnote-9)).

إنّ عائديّة النظام اللغويّ الاجتماعيّة لجماعة بشريّة مُعيّنة, تؤسّس عند سيبويه على افتراض أنّ للغة نظاماً محكماً من الضروري اكتشافه؛ وأنّ هذا النظام ليس ابتكاراً لشخص بعينه, بل هو نظام للجماعة اللغوية, فيتلاءم معيار المنزلة ههنا والمبدأ التفسيري, ذلك المبدأ الذي يجعلنا نصنّفه حين ترتبط دلالة المنزلة به إلى:

1. التفسير بالمنزلة للإيضاح: وهو مبني على أساس دلالي يُزيل المعنى الثاني الإبهام في المعنى الأول إلّا أنّه ليس من قبيل التكرار بقدر ما هو إيضاح وإثارة للقدرة المعرفيّة عند المتلقي جاء في (**هذا باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين**) قوله**:(( وإنْ قلت: رأيتُ, فأردتَ رؤية العين, أو وجدتُ, فأردتَ وجدان الضالة, فهو بمنزلة ضربتُ, ولكنّك إنّما تريد بوجدتُ علمتُ, وبرأيتُ ذلك أيضاً ألا ترى أنّه يجوز للأعمى أنْ يقول: رأيتُ زيداً الصالحَ. وقد يكون علمتُ بمنزلة عرفتُ, لا تريد إلّا علم الأول, فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾{البقرة65}؛ وقال سبحانه: ﴿وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾{الأنفال60} فهي ههنا بمنزلة عرفتُ, كما كانت رأيتُ على وجهين**))([[10]](#endnote-10)).

إنّ المقاربة بين العلم والمعرفة عند سيبويه ربما فرضها النمط النحوي المقتضي حدود قوة التعدّي المتفاوتة في الفعلين إلّا أنّ خلفيّة علم الكلام لا تتوارى ههنا كما رأى بعض الدراسين([[11]](#endnote-11)). مما يشي بالقول إنّ نزوع سيبويه نحو تفسير كلام العرب وتركيباته وآلية فهمه لم تكن عند تخوم النظر النحوي فحسب.

1. التفسير بالمنزلة للتعليل: وهو أنْ يُسوِّغ ما بعد المنزلة للمُشكل قبلها, من حيث إنّ الأصل في الأحكام التعليل؛ ونركن إلى نصّ سيبويه إذ يقول:(( **وقد جاء من الفعل ما قد أُنفذ إلى مفعول، ولم يقوَ قوة غيره ممّا قد تعدّى إلى مفعول، وذلك قولك: امتلأْتُ ماءً وتفقأْت شحماً, ولا تقول: امتلأتُهُ, ولا تفقأتُهُ ولا يعمل في غيره من المعارف, ولا يقدّم المفعول فيه, فتقول: ماءً امتلأتُ, كما لا يُقدّم المفعول فيه في الصفة المشبهة, ولا في هذه الأسماء؛ لأنّها ليست كالفاعل, وذلك لأنّه فعل لا يتعدّى إلى مفعول, وإنّما هو بمنزلة الانفعال لا يتعدّى إلى مفعول نحو: كسرتُهُ فانكسر ودفعته فاندفع**))([[12]](#endnote-12)).

إنّ للعامل قيمة كبرى جعلته يقارب بين الصفة المشبهة ومجموعة محدّدة من الأفعال بناءً على مشابهة شكليّة في عملهما فالأفعال المذكورة في النص السيبويهي هي أفعال لا تتعدى إلى مفعول به، وهو يقرنها ( بمنزلة الانفعال ). ويستقطب سيبويه مصطلح ( المفعول فيه) ليدلّ على أنّ نصبها للمفعول إنّما هو نفاذ غير مباشر فهو مفعول كمفعول الملحقات بالفعل؛ لأنّها ليست كالفعل في القوة. ولعمري أنّ أبا بشر أحدث توازناً بصورة تلقائية بين علاقة العنصر والموقع والوظيفة فجاءت علاقة منتجة في إطار حجاجيّ محتوٍ على مقدمات ظنيّة قابلة للمناقشة وصولاً إلى إثبات صدق القضية. إذ التعليل النحوي أمر احتمالي يقوم على الفرض ووظيفته تسويغ النمط الاستعماليّ للكلام يُؤازر ذلك قول الخليل:

(( **إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها, وعرفت مواقع كلامها, وقام في عقولها علله, وإنْ لم يُنقل ذلك عنها, واعتللت أنا بما عندي أنّه علة لما اعتللته منه, فانْ أكن أصبتُ العلة فهو الذي التمستُ؛ وانْ لم تكن هناك علة له, فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام, وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق, أو بالبراهين الواضحة, والحجج اللائحة. فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما هذا هكذا لعلة كذا وكذا, ولسبب كذا وكذا, سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجاز أنْ يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار, وجائز أنْ يكون فعله لغير تلك العلة, إلّا أنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فانْ سنح لغيري علة لما اعتللته في النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها** ))([[13]](#endnote-13)). فبالعلل تتجلى صور الفرضيات, ويُكشف عن الظواهر, وبمثل هذا الطرح يتبيّن مقدار حاجة النحو إلى هذا المنحى من التفكير.

1. التفسير بالمنزلة للتضمين: وهو التفسير الذي يقترب مما يسمى في اللغويات الحديثة بمبدأ ( الانضواء )([[14]](#endnote-14))، الدال على احتواء عنصر بنيوي على دلالة ضمنية, نستقرأه من نص سيبويه:(( **تقول: لا تأتيني فتحدّثني لم تُرد أنْ تُدخل الآخر فيما دخل فيه الأول فتقول:لا تأتيني ولا تُحدّثني, ولكنّك لمّا حوّلت المعنى عن ذلك تحوّل إلى الاسم كأنّك قلت: ليس يكون منك إتيان فحديث, فلمّا أردت ذلك استحال أنْ تضمّ الفعل إلى الاسم, فأضمروا " أنْ " ؛ لأنّ أنْ مع الفعل بمنزلة الاسم, فلمّا نوَوا أنْ يكون الأول بمنزلة قولهم: لم يكن إتيان. استحالوا أنْ يضمّوا الفعل إليه, فلّما أضمروا أنْ حسُن؛ لأنّه مع الفعل بمنزلة الاسم**))([[15]](#endnote-15)).

فالفعل ههنا بمنزلة الاسم بقيام علاقة الاشتمال الضمني– لاحتوائه الحدث( الإتيان) – فقد رصد سيبويه سلوكاً متمّيزاً لـ( أنْ ) الناصبة ومعمولها الفعل في أنّهما تسلك مسلك التركيبات العباريّة مما يجعلها تقع موقع الأسماء في الجملة, بمعنى أنّ الحرف( أنْ ) وصلته( الفعل) يشغل في الجملة موقع الاسم, يدلّ على ذلك ما جاء في أحد الأبواب قوله: (( **هذا باب من أبواب أنْ التي تكون والفعل بمنزلة المصدر، تقول: أنْ تأتيني خيرٌ لك؛ كأنّك قلت: الإتيان خيرٌ لك** ))([[16]](#endnote-16)). وليس معنى ذلك أنّها وصلتها بمعنى الاسم( زيد ) و( عمرو ) ونحوهما, بل أراد بها سيبويه الاسمية مفهوماً.

1. التفسير بالمنزلة لتأصيل الأصناف: وهو أّنّ ما بعد المنزلة يوضّح السبب, وممّا يؤكّد قيمة هذا الضرب من التفسير بالمنزلة أنّ سيبويه يؤصّل تصنيف الفعل عبره بالنظر إلى الحدث بوصفه صنفاً معرفيّاً قائماً بذاته كمُنَ في الفعل, يقول: (( **ألا ترى أنّ قولك: قد ذهب بمنزلة قولك: قد كان منه ذهاب. وإذا قلت: ضرب عبدُالله, لم يستبِن أنّ المفعول زيدٌ أو عمرو, ولا يدلّ على صنف, كما أنّ ذهب قد دلّ على صنف, وهو الذهاب, وذلك قولك: ذهب عبدُ الله الذهاب الشديد, وقعد قِعدة سوء, وقعد قعدتين؛ لمّا عمل في المرّة منه والمرتين, وما يكون ضرباً منه**))([[17]](#endnote-17)).

فالحدث عند سيبويه عامل رئيس في البنية التركيبية يحيل على ذلك قوله: (عمل في المرة والمرتين) فهو يدعم هذه الفكرة بالمستويات التمثيلية, بقوله:(( **وما يكون ضرباً منه, فمن ذلك: قعد القرفصاء، واشتمل الصمّاء، ورجع القهقرى؛ لأنّه ضربٌ من فعله الذي أُخذ منه**))([[18]](#endnote-18)). ويُبيّن سيبويه سبب رؤيته هذه، فالمسألة ههنا تخضع لتصنيفات، وهي تصنيفات تكون في بُعدها الأول محاكية لحركة الفعل وقد تمتدّ لما هو أبعد من ذلك تكون ذات بُعدِ إحاليِّ مباشرِ، ومرتبط بقيم التركيب، والترابط الحاصل بين أجزاء هذا التركيب؛ فالفعل عند سيبويه أخذ (( **من لفظ أحداث الأسماء**))([[19]](#endnote-19)). فالذهاب في ( ذهب) حالة تمثيليّة خاصة بالفعل بأسبقية متصوّرة.

ويتوغّل سيبويه في أبعاد هذا التفسير ضمن نص آخر قائلاً: (( **ألا ترى أنّك إذا قلت: ضاربٌ رجلاً, أو مأخوذٌ بك, وأنت تبتدئ الكلام احتجت ههنا إلى الخبر, كما احتجت إليه في قولك: زيدٌ وضاربٌ, ومنك بمنزلة شيء من الاسم في أنّه لم يُسند إلى مسند، وصار كمال الاسم, كما أنّ المضاف إليه منتهى الاسم وكماله**))([[20]](#endnote-20)).

فسيبويه ههنا يظهر قضية مهمة جداً, وهي أقلّ ما يتألف منه الكلام بحثاً عن نواته التي هي عبارة عن وحدات غير قابلة للتحليل تكوّن البنية الأساس للنظر في وحدات التركيب للكلام العربي, ويلحظ من توظيف المنزلة ههنا إيماءة منه إلى أنّ فهمه للنواة بوصفها (( **مستوى تجريديّ في فهم الجملة, يكون من الناحيّة اللغويّة قبلياً عن إنشاء الكلام, وتتخذ فيه الجملة نمطاً مثالياً لها. وقد يظهر هذا النمط عند الاستعمال, وقد لا يظهر. ويتمّ عن هذا النمط أو هذه البنية تحقّق نمطين أساسيين سيصبحان البنية الأعمق وستكون هذه الأنماط ممثلة للبنية العميقة للجمل المتحققة لهذه الأنماط**))([[21]](#endnote-21)).

ومقياس الانتقاء يجعلنا أمام نص آخر يقول سيبويه فيه:(( **ومما يُختار فيه النصب لنصب الأول, ويكون الحرف الذي بين الأول والآخر بمنزلة الواو والفاء وثُمّ, قولك: لقيتُ القوم كلّهم حتى عبدَالله لقيته, وضربتُ القومَ حتى زيداً ضربتُ أباه, وأتيتُ القومَ أجمعين حتى زيداً مررتُ به, ومررتُ بالقوم حتى زيداً مررت به. فـ(حتى) تجري مجرى الواو وثُمّ وليست بمنزلة أمّا؛ لأنّها إنّما تكون على الكلام الذي قبلها ولا تبتدئ**))([[22]](#endnote-22)). فهي لفتة ذكية من سيبويه حين يولي بعض الحالات عناية بأنْ يكون الجوار فيها أقوى من البناء.

ومن مواضعها ما أورده مع" حتّى " موضّحاً مشابهتها لحروف العطف( الواو والفاء ) فجمع في نصّه تنوعات نمطية لها بأنّ (عبدالله) في المثال الأول قد حُمِل على اللفظ المجاور( القوم ) فالعامل عمل في مضمر يربط الاسم بالمفعول المتقدّم إحاليّاً, ويتفق( زيد) في المثال الثاني مع (عبد الله) في الحمل على الجوار إلّا أنّ العامل عمل في مضمر على نحو غير مباشر بوقوعه على شيء من سببه, وحُمِل المفعول على المفعول المجاور في المثال الثالث؛ إلّا أنّ الفعل يعمل في مضمر على نحو غير مباشر, أي: وصل إليه عبر الحرف. أمّا المثال الأخير فقد حُمِل المفعول على موقع المجاور وليس من لفظه. ولأبي بشر شأنٌ في الإبداع ههنا فهو يُحفّز متلقيه بتكرار متتاليات لغوية تقتضي عدداً من الملامح البارزة أتت في مقدمتها أنّ عمليات تكوينها تتَّجه بصفة خاصّة إلى الجانب الدلالي.

فالنصوص المنظمة عن طريق النحو والدلالة تفرض نفسها على الذاكرة, فتكون قابلة للاستمرار ويكفل التكرار أو التناظر- حينما يكون الطابع البنيوي نفسه([[23]](#endnote-23))- سبيل الحفظ والاسترجاع , وهو ما يُمكِّننا من القول: إنّ سيبويه اعتمد إستراتيجيّة تعليميّة تقوم على التناظر والتكرار. وجدير بالتنويه أيضاً أنّ الأنماط التي ذكرها سيبويه تتساند إلى مبدأي التسوية والتعديل, من حيث إنّ المادة اللغوية واحدة وما بعد حتّى يشتمل على الانسجام مع ما قبلها بآثارها السماعية عن طريق أخذها العلامة الإعرابية نفسها. فإنبناء الهاجس اللغوي إنّما يرتدّ إلى مرجعيات نفسية تكيّفها لاختيار ترميز مشابه لما قبل الأداة (حتى). فالتنويعات البنائية يكسوها سيبويه بعداً صوتياً لسانياً وليد الانفعال. ويبدو أنّ هذا الجانب مسكوت عنه في الكتاب, وهو جانب يُشخّص قيم التفاعل النفسي المنطوية عليه فاعلية هذه العناصر البنائية نطقاً بأنْ تكون معياريّة إيقاعيّة تحتفظ في عباراتها بكثير من الامتيازات الإيقاعية. وكأنّ سيبويه يوحي إلى نشاط لساني يقوم على تداعي العناصر على وفق قانون طبيعي وهو قانون الخفة, بتتابع الحركات, يجدُ لَهُ مصداقيّة بالغة في نصوصه تمنحه أهلية الاختيار الإيقاعي المبرَّر نفسيّاً ولسانيّاً وسماعيّاً، فيكون ذلك سبيله المنزلة في فهم آليات قانون الاستخفاف الذي يتمّ بالمجاورة.

**التفسير بالمنزلة للإجمال:** وفيه يوسّع سيبويه دائرة معالجته التحليلية للمكوّنات اللغوية, فعلى الرغم من تطبيق المسلك التفكيكيّ في تحليلاته إلّا أنّه يُجمل بالحكم بما هو بعد المنزلة, فقد عرّج على( أمْ ) المنقطعة مقدِّماً مسحاً شاملاً في أنّها تأتي بعد الخبر، وبعد الاستفهام، وفي مظهر مُجمل هو( الانقطاع ) فيقول:(( **ويدلّك على أنّ هذا الآخر منقطع عن الأول قول الرجل: إنّها لإبلٌ ثمّ يقول: أم شاءٌ يا قومِ. فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعة, كذلك تجيء بعد الاستفهام... وبمنزلة أم ههنا قوله عزّ وجلّ:﴿ الم\* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ\* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾{السجدة1و2}... ومثل ذلك: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ...﴾{الزخرف51و52} كأنّ فرعون قال: أفلا تبصرون أم أنتم بصراء؛ لأنّهم لو قالوا: أنت خيرٌ منه, كان بمنزلة قولهم: نحن بصراء عنده, وكذلك :أم أنا خيرٌ بمنزلته لو قال: أم أنتم بصراء**))([[24]](#endnote-24)). ويؤكِّد هذا الإجمال بالاستشهاد لها بمواضعَ قرآنية، زيادةً في الكشف وتتميماً للبيان؛ لأنّ آياته برهان صدق ينطلق منها إلى تفسير تحليليّ يُثبت فيه أنّها تبقى منقطعة على الرغم من وقوع التغاير لمجيئها, خبراً واستفهاماً. ولا يقتصر الإجمال على الأداة, بل أنّ بنيته التفسيرية تتسع لتشمل أنماط الكلام. وتبرز هذه المسألة في بعض الأنماط الخبريّة التي قد تنزل منزلة أنماط الأمر، والنهي بالارتكان إلى بنيتها العميقة المعدولة عن دلالتها الإخبارية إلى دلالة طلبية؛ وقد عالج سيبويه هذه الازدواجية في(( **باب الحروف التي تنزل منزلة الأمر والنهي؛لأنّ فيها معنى الأمر والنهي**)). ممثلاً لذلك بـ(( **حسبُك ينم الناس. ومثل ذلك: اتّقى الله امرؤٌ, وفعلَ خيراً يُثبْ عليه؛ لأنّ فيه معنى ليتقِ الله امرؤٌ, وليفعل خيراً, وكذلك ما أشبه هذا**))([[25]](#endnote-25)). فقد جعل سيبويه المعنى عاملاً جوهريّاً في تفسير الكلام, ويشرع في وضع ضوابط تفسّر نظام الإعراب من حيث إنّ القول بالعمل ههنا - أعني عمل العناصر اللغوية بعضها ببعض- ليس على وجه الحقيقة, بل على وجه العلاقات المطردة الثابتة بينها في تلازمها (( والقول بالعمل افتراض في التحليل الداخلي أعانهم على تفسير كثير من الظواهر في الإعراب وما يتعلق به))([[26]](#endnote-26)). فالعنصر الإخباري " حسبك" في قول العرب: حسبُك الحديثُ ينِم الناس. تتحدّد دلالته بـ" اكفف" , واختيار هذه الدلالة؛ إنّما جاء لورود العنصر الفعلي الثاني " ينم" مجزوماً؛ لعدم استغناء تحقيقه عن تحقق مضمون العنصر الأول المدلول عليه بالنمط الإخباري([[27]](#endnote-27)).

ونخال أنّ علاقة التداعي بين أنواع التفسير والمنزلة يؤكِّد ضرورة ملاءمة المفسِّر للأمر المفسَّر, ولا يخرج عمّا هو بحاجة إلى تفسير بما يضيف جديداً يوضّح الأول. ولولا ذلك لما كان هناك مسوّغ لتوظيفه. ونشير إلى أنّ دقة استعمال سيبويه لمفهوم المنزلة ههنا أوجب خلق بنية علميّة هرميّة لها قاعدتها الاستقرائيّة, وتقنياتها التحليليّة, ووسائلها التفسيريّة؛ لأنّ التفسير نظرية تفسِّر الاستقراء والتحليل أي الوصف والقانون, فيكون بذلك أسمى أهداف المشروع العلميّ.

1. () أبو علي الفارسي:165.وينظر كتاب سيبويه:1/166. [↑](#endnote-ref-1)
2. () من أمثلة العلاقات الاستدلالية: علاقة الشرط, والاستلزام, والسببية, والتفسير, والقياس, والاستنتاج. ينظر الخطاب والحجاج: 17. [↑](#endnote-ref-2)
3. () سلطة الكلام وقوة الكلمات:142. [↑](#endnote-ref-3)
4. () وظّف سيبويه هذا المفهوم في التفسير المرتكز على استدلال يتصل بعلم من علوم القرآن يُسمّى المكي والمدني, من ذلك ما نقله عن أبي الخطاب قائلاً: (( **وزعم أبو الخطاب أنّ مثله قولك للرجل: سلاماً. تريد تسلّماً منك, كما قلت: براءة منك... وزعم أنّ هذه الآية﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾{**الفرقان63**} بمنزلة ذلك, لأنّ الآية فيما زعم مكيّة، ولم يِؤمر المسلمون يومئذ أنْ يُسلّموا على المشركين, ولكنّه على قولك براءة منكم وتسلّماً لا خير بيننا وبينكم ولا شرّ** )) كتاب سيبويه:1/324-325. [↑](#endnote-ref-4)
5. () نوّه بعض الدارسين على عجالة إلى استعمال سيبويه لمفردة المنزلة، ودعا إلى أنْ ينقب عنها وتدرس وذكر فائدتها بجهتين: الجهة الأولى، كونها وسيلة يحيلُ بها سيبويه على مواضع متقدمة من الكتاب تجنبا للتكرار فيبعد عن القارئ الملل وعن الكاتب التعب. والأخرى جهة القارئ أو المتعلم فتجعلهُ يرسخ المعلومة المذكورة بالموازنة بين المنزلتين؛ ينظر: **التعليل الصوتي عند العرب في ضوء الدرس الصوتي الحديث،قراءة في كتاب سيبويه**:44-45. إلا أنّ أمر المنزلة يبدو أشد فائدة ممّا تقدّم، ولاسيما مع لمح الطابع الحجاجيّ الذي انتحاه سيبويه عند إيراده هذه اللفظة وتأصيل نمط من التفكير اللغوي؛ وإلا كان بإمكانه أن يستعيض عنها بالألفاظ الأخرى التي توفي الجهتين المذكورتين، بالإحالة إلى المواضع أو استعمال ألفاظ التشبيه سواء بالأدوات الخاصة أو بالألفاظ الدالة. [↑](#endnote-ref-5)
6. () منهاج البلغاء:20. [↑](#endnote-ref-6)
7. () مثّلت المنزلة عند سيبويه قانون الاستقراء اللغوي مما مهّد لظهور القياس المنطقي بعد ذلك, يتضح هذا الأمر عبر إحصاء موارد ذكرها إذ ورد ذكرها في (**1797**) مرة في الكتاب:

   **- في الجزء الأول ذُكرت( 594 ) مرة.**

   **- في الجزء الثاني ذُكرت( 699 ) مرة.**

   **- في الجزء الثالث ذُكرت( 486 ) مرة.**

   **- في الجزء الرابع ذُكرت( 18 ) مرة.**

   وهذا العدد قليل في الجزء الرابع بإزاء بقية الأجزاء يقودنا إلى القول باستنفاذ أطر استعمال هذه اللفظة ووضوح مواضعها في الأجزاء الأولى, ولاسيما في غنائها بالتراكيب التي تتعدد جوانب تحليلها فيحتاج معها إلى تمثيل , أو عرض مشابهة, أو مساواة, أو نفي تلك المساواة فتطلّب معه الكثرة في استعمالها لحاجة التحليل, أو التعليل, أو الإيضاح. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن المواضع الأخير يكتفي فيها بالإحالة إلى ما سبق تناوله طلبا للاختصار وننوّه إلى أنّ استعمال هذه المفردة قد اختفى بعد سيبويه عند النحاة الخالفين إلّا في إشارات قليلة ورد ذكرها, منها إشارة ابن جني في الخصائص في حديثه عن عدم جواز تقديم المستثنى على الفعل الناصب في2/384-385 و1/249. وإشارة ابن هشام في حديثه عن السين المهملة, وكلتا الإشارتين في معنى ( موضع النزول) أي: المكان. وانْ زاد ابن هشام معنى آخر, وهو(المشابهة) في حديثه عن( سيّ ) في( لاسيّما), فهو مشابه لـ(مثّل) وزنا ًومعنى. ينظر المغني1/275و1/276. [↑](#endnote-ref-7)
8. () كتاب سيبويه:3/18-19. [↑](#endnote-ref-8)
9. () كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات:26. [↑](#endnote-ref-9)
10. () كتاب سيبويه: 1/40 ، وأورد سيبويه زعْمَ الخليل في بيت الأسود بن يعفر:

    **أحقاً بني أبناء سلمى بن جندلِ تهدّدكم إيّاي وسط المجالس.**

    أنّ التهدّد هنا بمنزلة الرحيل بعد غد, ينظر كتاب سيبويه:3/136. [↑](#endnote-ref-10)
11. () ذهب د.إدريس مقبول إلى أنّ مذهب سيبويه في ترادف العلم والمعرفة هو نفسه مذهب المعتزلة مستدلاً على ذلك بالنص أعلاه. ينظر: الأسس الابستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه :199و201. ولعل الأمر أقرب من هذا الإدعاء فلولا الأساس التداوليّ لهاتين اللفظتين لما أمكن لسيبويه أن يقارب أحد الفعلين بالآخر. [↑](#endnote-ref-11)
12. () كتاب سيبويه:1/204-205 وينظر1/90-91. [↑](#endnote-ref-12)
13. () الإيضاح في علل النحو:66. [↑](#endnote-ref-13)
14. () يُقصد بالانضواء تضمّن عنصر بنيوي دلالة ضمنية ثانية. ينظر: مدخل إلى علم اللغة( تود): 96, واللسانيات والبيداغوجيا:141 و172 وعلم المعاني( عتيق):140. [↑](#endnote-ref-14)
15. () كتاب سيبويه:3/28. [↑](#endnote-ref-15)
16. () كتاب سيبويه:3/153. [↑](#endnote-ref-16)
17. () كتاب سيبويه:1/34-35. [↑](#endnote-ref-17)
18. () كتاب سيبويه:1/35. [↑](#endnote-ref-18)
19. () كتاب سيبويه:1/12. [↑](#endnote-ref-19)
20. () كتاب سيبويه: 3/328-329. [↑](#endnote-ref-20)
21. () مفهوم الجملة عند سيبويه :222. [↑](#endnote-ref-21)
22. () كتاب سيبويه:1/96. [↑](#endnote-ref-22)
23. () نعني بالطابع البنيوي ههنا نسق(حتى) مع الاسم المنصوب بعدها في المتتاليات المذكورة في النص السيبويهي. [↑](#endnote-ref-23)
24. () كتاب سيبويه: 3/173. [↑](#endnote-ref-24)
25. () كتاب سيبويه: 3/100. [↑](#endnote-ref-25)
26. () نظرية النحو العربي 24. [↑](#endnote-ref-26)
27. () ينظر: شرح الأشموني3/569-570، وعناصر النظرية النحوية 173، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه 257-258. [↑](#endnote-ref-27)